﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: 9 - 12]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مِنَ العِتابِ الرَّقيقِ إلَى التَّقريعِ الصَّريح

لَمّا تَحَدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَن عِتابِ اللّه تعالى للإنسان الغافِلِ المَغرورِ، وبَيَّنَت أنَّهُ ما كان للإنسان أنْ يَغْتَرَّ بربِّه الَّذي خَلَقَه، وسَوَّاهُ، وعَدَّلَه، ورَكَّبَه في أحسَنِ صورَة؛ جاءَت هَذِهِ الآياتُ؛ لِتَكْشِفَ عِلَّةَ الغُرورِ المذكورِ، ثُمَّ تُفَنِّدَ دَعوَى الأمنِ الكاذِبِ، وتَضرِبَ سياجًا من الرّقابةِ الربّانيّةِ على كُلِّ نَفْسٍ، ولتُبيِّنَ أنَّ مَن يُكذِّبُ بالدّينِ إنّما يُكذِّبُ عن علمٍ، لا عن غَفلَةٍ، وأنَّ أعمالَه مَحفوظَةٌ عليه، تنتظرهُ في يومِ الجزاءِ.

وفيها أيضًا مُناسَبَةٌ لِما ذُكِرَ في الآياتِ السّابِقَةِ مِنْ مَطلَعِ السّورَة، مِنْ مَظاهِرِ وُقوعِ الحَشْرِ والنَّشر، فجاءَت هَذِهِ الآياتُ بشرحِ تَفاصيلِ الأحْوالِ المُتَعَلِّقَةِ بذَلِك.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلدِّينِ﴾: (دين) أصْلٌ يَدُلُّ على الجزاءِ والمجازاةِ، والملكيّةِ والانقيادِ، والسُّلطَةِ التي تُلزِمُ بالطاعةِ، يُقالُ: (دانَ له)، أي: خضعَ، وانقادَ، و(دِنْتُهُ)، أي: جَزَيْتُهُ بعملِه، و(الدّينُ) ما يُدانُ به، أي: يُلزَمُ به العبدُ أمامَ سُلطانٍ أعلى، سواءٌ في المُعامَلَةِ أوِ الجَزاءِ[1]، وقَدْ وردَت كَلِمَةُ (الدّين) في القرآنِ على مَعانٍ مُتَعَدِّدَةٍ، لَكِنَّها تَلتَقي في مِحوَرَينِ اثنَين: الدّين بمعنى الجزاءِ، كما في قولِه تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: 4]، أي: يوم الجزاءِ والمحاسبةِ، والدّين بمعنى المِلَّةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دين).

والشريعةِ والطاعةِ، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾، أمّا في سياقِ هذه الآيةِ: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾، فالمرادُ بالدّينِ هنا هو الجزاءُ، بأنَّكُم مَبعوثونَ يومَ القيامَة[1]، أي: تُكذّبونَ بيومِ الدّينِ، الذي هو يومُ الجزاءِ والحسابِ.

2) ﴿لَحَٰفِظِينَ﴾: (حفظ) أصْلٌ يدلُّ على مُراعاةِ الشَّيء[2]، وعلى الصَّونِ والمَنعِ مِنَ الضَّياعِ أوِ الفَسادِ أوِ التَّبديلِ، والبقاءِ على الحالةِ المطلوبةِ، يُقالُ: (حَفِظَ الشيءَ)؛ إذا راعاهُ، وصانَهُ، وحرصَ عليه، و(الحافِظُ) هو الذي يُداومُ على الرِّعايةِ والمتابعةِ والتتبُّعِ لمنعِ الخللِ أو النِّسيانِ أو التَّفريطِ[3].

3) ﴿كَٰتِبِينَ﴾: (كتب) أصْلٌ يدلُّ على الجَمعِ والضّمِّ والتدوينِ، والكتاب والكتابة: مصدرُ (كتبت)، والمُكْتِبُ: المُعَلِّم، والكُتَّاب: مَجمَعُ صِبيانِه[4]، ثم خُصَّ في الاستعمالِ بالغالبِ بمعنى الخطِّ والتسجيلِ بالقَلَمِ، حتّى صارَ يُطلَقُ على مَن يقومُ بهذه الوظيفةِ اسمُ: (كاتبٌ)، وجمعُه (كاتِبون) أو (كاتِبينَ)، ودلّت المفردةُ ﴿كَٰتِبِينَ﴾ في هذا السياقِ القرآنيِّ على الملائكةِ الموكَّلينَ بكتابةِ أعمالِ العبادِ، فهُم لا يَكتَفونَ بالحِفظِ، كما أشارت إليه الآيةُ السابقةُ، بل يُدوِّنونَ كلَّ ما يقعُ من الإنسانِ من قولٍ أو فعلٍ أو نيّةٍ، على وجهِ الضَّبطِ والإحصاءِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الرقابةُ الإلَهيّةُ والمَوقفُ من يومِ الدين

في هَذِهِ الآياتِ، يقولُ اللّه للإنسانِ، بعدَ أن نهاه عن الاغترارِ بمَولاهُ الكَريم، الَّذي خَلَقَهُ في أحسَنِ صورَة: لَكِنَّكُم يا مَعشَرَ العُصاةِ والكُفّارِ لا تَرتَدِعون عنِ التَّكذيب بيَومِ الجزاء، وتُكَذِّبون

(1) السّمرقندي، بحر العلوم: 3/ 533.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حفظ).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (حفظ).
(4) الخليل، العين: (كتب).

بدين الإسلام، والحالُ أنَّ الله جَعَلَ عَلَيكُم مَلائِكَةً تَكتُبُ أعمالَكُم، وتَحفَظُها ليَوم الدّين، وهُم كِرامٌ بَرَرَةٌ، كاتِبونَ لِلأعمالِ خَيرِها وشَرِّها، يَعلَمونَ كُلَّ ما تَفعَلون[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بَراعَةُ استِعْمالِ ﴿كَلَّا﴾:

كشفُ تَوَهُّمِ الغافلين، وتَعليلُ التَّكذيبِ بيومِ الدّين

تَظهَرُ بَلاغَةُ استِعمال حَرفِ الجَواب ﴿كَلَّا﴾، في قَولِ الله تَعالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ في حُسنِ مَوقِعِها؛ لأنّها جاءَت فاصِلةً بَينَ ما سَبَقَ مِن تَوبيخِ الإنسانِ على غُرورِهِ بِرَبِّهِ الكَريم، وبَينَ التَّعليلِ الحَقيقيِّ لِذَلِكَ الغُرورِ؛ ولأنّها تَحمِلُ مَعنَى الرَّدعِ والزَّجرِ عنِ الاغترارِ بكَرَمِ الله، فهيَ كالجَوابِ الدّامِغِ لِما سبق مِن ذِكرِ غُرورِ الإنسان[2]، فهيَ كَلِمَةٌ جامِعَةٌ تُفيدُ قَطعَ الأوهامِ وإبطالَ ما يوهِمُهُ كَرَمُ الله مِن أنَّهُ يُسَوِّغُ لِلإنسانِ أن يَتمادَى في الغُرورِ والعِصيانِ، فكَأنَّهُ قيلَ: (لَيسَ الأمرُ كَما يَتَوَهَّمُ الغافِلُ مِن أنَّ كَرَمَ الرَّبِّ يَكفي عَن الجَزاءِ والحِسابِ).

ويُؤَكِّد ذلك القَطْعَ أنّها أُتبِعَت بقوله: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾؛ ليَكونَ الإضرابُ إضرابَ انتِقالٍ؛ فتُقِلَ الكَلامُ مِن رَفعِ الباطِلِ إلَى إثباتِ الحَقِّ، أي: (إنَّ دافِعَ غُرورِكُم وجُرأتِكُم على مَعصيَةِ الله لَيسَ الكَرَمَ، بَل إنَّما هوَ تَكذيبُكُم بيَومِ الدّين)، وفي ذَلِكَ تَعريَةٌ لِحَقيقَةِ الدّاءِ الَّذي أورَثَهُم الغَفلَةَ والجُحودَ.

دلالَةُ ﴿بَلْ﴾:

انتِقالٌ مِنَ التَّوبيخِ على الغُرور، إلى كَشفِ جُرْمِ التَّكذيب

أوثَرَ التَّعبيرُ بـ﴿بَلْ﴾ في قَوْلِ الله تَعالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾؛ لأنَّهُ سُبْحانَهُ لَمّا زَجَرَهُم عَنْ ذلِكَ الاغترارِ بقَوْلِهِ: ﴿كَلَّا﴾؛ أرْدَفَهُ بحَرفِ الإضرابِ ﴿بَلْ﴾ الَّذي وُضِعَ في اللُّغَةِ لِنَفْيِ شَيْءٍ قَدْ

(1) حجازي، التفسير الواضح: 30/ 39.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 292.

تَقَدَّمَ وتَحْقيقِ غَيْرِهِ[1]، وهذا إضْرابٌ انتقاليٌّ مِنْ غَرَضِ التَّوْبيخِ والزَّجْرِ على الكُفْرِ، إلَى ذِكْرِ جُرْمٍ فظيعٍ آخَرَ، وهوَ التَّكْذيبُ بالبَعْثِ والجَزاءِ، ويَشْمَلُهُ التَّوْبيخُ بالزَّجْرِ؛ بسَبَبِ أنَّهُ مَعْطوفٌ على تَوْبيخٍ وزَجْرٍ؛ لأنَّ (بَلْ) لا تَخْرُجُ عَنْ مَعْنَى العَطْفِ، أي: العَطْفِ في الغَرَضِ لا في نِسْبَةِ الحُكْمِ؛ ولِذلِكَ يَتبَعُ المَعْطوفُ بها المُفْرَدُ في إعْرابِ المَعْطوفِ عَلَيْهِ، فيَقولُ النُّحاةُ: إنَّها تُتبَعُ في اللَّفْظِ لا في الحُكْمِ، أيْ: هوَ اتِّباعُ مُناسَبَةٍ في الغَرَضِ، لا اتِّباعٌ في النِّسْبَةِ[2].

ويَجوزُ أن يكونَ ﴿كَلَّا﴾ إبْطالًا لِوُجودِ ما يَغُرُّ الإنسانَ أنْ يُشْرِكَ باللّه، أيْ: لا عُذْرَ لِلإنسانِ في الإشْراكِ باللّه؛ إذْ لا يوجَدُ ما يَغُرُّهُ بهِ، ويَكونَ ﴿بَلْ﴾ للإضْرابِ الإبْطاليِّ، وما بَعْدَ ﴿بَلْ﴾؛ بَيانًا لِما جَرَّأهُم على الإشْراكِ، وأنَّهُ لَيْسَ غُرورًا؛ إذْ لا شُبْهَةَ لَهُم في الإشْراكِ حَتَّى تَكونَ الشُّبْهَةُ كالغُرورِ[3]، فكانَ في استِعمالِ ﴿بَلْ﴾ تَخطيرٌ لِهَذِهِ الحَقيقَةِ، ونَقلٌ لِلمُخاطَبِ مِن دَفعِ وهْمٍ إلَى إلقاءِ جُرْمٍ صَريحٍ، فتكونُ ﴿بَلْ﴾ قد أخرَجَتِ الكَلامَ مِن دائِرَةِ الرَّدعِ والتَّخطِئَةِ إلَى دائِرَةِ التَّقريرِ والكَشْفِ، فكانَت كالمِفتاحِ الَّذي يَفتَحُ بابَ البَيانِ عَنِ العِلَّةِ الحَقيقيَّةِ لِغُرورِ الإنسانِ وإعراضِهِ.

سِرُّ اختيارِ فِعلِ التَّكذيب:

بيانُ شِدَّةِ الإعراضِ وعُمقِ الجُرْمِ

إنَّ اختيارَ القُرآنِ لِفِعلِ التَّكْذيبِ في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ دونَ أن يُقالَ: (تُنكِرونَ)، أو (تَكفُرونَ)؛ لأنّ الإنكارَ يُفيدُ مُجرَّدَ الجُحودِ في القَلبِ، والكُفرَ يَدلُّ على سَترِ الحَقِّ وجَحْدِه، بَينَما التَّكذيبُ يَتَضَمَّنُ مَع هَذا ادِّعاءَ أنَّ المَكذوبَ بهِ باطِلٌ، وإظهارَ هَذا الزَّعمِ في مواجَهَةِ الحَقِّ، فالتَّكذيبُ إذًا أشدُّ مَراتِبِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 77.
(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 178.
(3) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 178.

الإعراضِ؛ لأنَّهُ يَجمَعُ بَينَ رَفضِ القَلْبِ ومُجاهَرَةِ اللِّسانِ، وفيهِ مُكابَرَةٌ ومُعانَدَةٌ، وهَذا أوفَقُ بمَقامِ التَّقريرِ هُنا.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بصيغَةِ المُضارِعِ:

استحضارُ الجُرمِ، وتأكيدُ استمراريَّةِ التَّكذيبِ

إنَّ استِعمالَ صيغَةِ المُضارِعِ في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ دونَ أن يُقالَ: (بَل كَذَّبتُم) بصيغة الماضي، هوَ لِدِقَّةٍ بَلاغيَّةٍ تُظهِرُ مَعنًى مُتَجدِّدًا ومُتَكرِّرًا، فالمُضارِعُ في الأصلِ دالٌّ على الحالِ والاستِقبالِ[1]، وهُنا يُفيدُ أنَّ التَّكذيبَ لَيسَ حادِثًا واحِدًا في زَمَنٍ ماضٍ، بَل هوَ سُلوكٌ دائِمٌ يَتَجدَّدُ مَعَ كُلِّ حُجَّةٍ تُلقَى، ومَعَ كُلِّ آيَةٍ تُتلَى، وبِذَلِكَ صارَ فِعلُهُم بمَنزِلَةِ الدَّيدَنِ والعادَةِ، لا يُفارِقُهُم في أيِّ زَمَنٍ، وفي هَذا تَهويلٌ لِلجُرمِ؛ إذ هوَ لَيسَ زَلَّةً عارِضَةً ولا شُبهَةً مُؤَقَّتَةً، بَل هوَ إصرارٌ مُتَكرِّرٌ وإعادَةُ تَكذيبٍ بَعدَ تَكذيبٍ، "وَفي المُضارِعِ أيضًا استِحضارُ حالَةِ هذا التَّكذيبِ استِحضارًا يَقتَضي التَّعجيبَ مِن تَكذيبِهِم؛ لأنَّ مَعَهُم مِنَ الدَّلائِلِ ما لَحِقَهُ أنْ يُقلِعَ تَكذيبُهُم بالجَزاءِ"[2].

تَوجيهُ القِراءَتَينِ في ﴿تُكَذِّبُونَ﴾:

مِنَ المواجَهَةِ إلى الوَصْفِ في رَسْمِ حالِ المُكَذِّبين

قُرِئَ فِعلُ التَّكذيبِ مِن قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ بالخِطابِ والغَيبَةِ، فقرأ جُمهور القرّاء: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ بالتّاءِ؛ خِطابًا لِلمُشركينَ والعُصاةِ على وجهِ المواجَهَةِ، فهوَ أبلَغُ في التَّوبيخِ؛ لأنَّهُ يُصَوِّرُهُم، وهُم في مَقامِ الحِوارِ مَعَ الكَلامِ الإلَهيِّ، وقرأ أبو جَعفَرٍ وحدَهُ ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ بالياءِ على الغَيبَةِ، أي: (هُم يُكَذِّبونَ بالدّينِ)[3]، وفي هَذِهِ القِراءَةِ تَلوينٌ في الالتِفاتِ[4]، فإنَّهُ لَمّا كانَ الحَديثُ أوَّلًا على سَبيلِ التَّوجيهِ لِلإنسانِ في قَولِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾، ثُمَّ رُدِعَ بـ﴿كَلَّا﴾؛

(1) المُبرّد، المقتضب: 2/ 2، والزّمخشريّ، المُفصّل: 2/ 137.
(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 179.
(3) النيسابوري، المبسوط في القراءات العشر، ص: 465، وابن الجزري، النشر: 2/ 399.
(4) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 179.

جاءَ التَّحويلُ إلَى الغَيبَةِ في قَولِهِ: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾؛ ليَكونَ الكَلامُ في مَعرِضِ الحِكايَةِ عَن شَأنِهِم وصِفَتِهِم، وفي ذَلِكَ تَفنينٌ بَلاغيٌّ، فالقِراءَتانِ بَليغَتان، فمَن قَرَأ بالتّاءِ؛ فهوَ على سَبيلِ المُخاطَبَةِ الشَّديدَةِ الَّتي تَستَحضِرُ المُكَذِّبينَ أنفُسَهُم، ومَن قَرَأ بالياءِ؛ فقَد جاءَ على سَبيلِ الحِكايَةِ عَن صِفَتِهِم لِتَقريرِ فِعلِهِم في حَقِّهِم.

دَلالَةُ الباء:

تَثبيتُ حَقيقَةِ الجُرْمِ في التَّكذيبِ

الباءُ في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ هيَ باءُ التَّعديَةِ، جُعِلَت لِتَعديَةِ فِعلِ التَّكذيبِ إلَى مَفعولِهِ، كَما يُقالُ: ذَهَبتُ به، وخَرَجتُ به، وهيَ لِتأكيدِ اللُّصوقِ؛ للمبالَغَةِ في التَّكذيب[1]، فتُفيدُ أنَّ تَكذيبَهُم لَيسَ مُجرَّدَ إعراضٍ أو جُحودٍ في الباطِنِ، بَل هوَ إسنادٌ صَريحٌ لِلبُطلانِ إلَى المَكذوبِ بِهِ، فهُم لا يَكتَفونَ بالجُحودِ، بَل يَزعُمونَ أنَّ الدّينَ - أي: الجَزاءَ والحِسابَ - باطِلٌ، فبَلاغَةُ ذِكرِ الباءِ أنَّها أبرَزَت شِدَّةَ التِصاقِ فِعلِ التَّكذيبِ بمَتعلَّقِهِ، فكَأنَّهُ موجَّهٌ إلَيهِ بالحَصرِ والتَّعيينِ، وذَلِكَ أبلَغُ في التَّوبيخِ وإظهارِ فظاعَةِ جُرمِهِم.

بَلاغَةُ اختيارِ لَفظِ (الدّينِ):

دَلالَتُهُ أجمَعُ وأوسَعُ مِنْ غَيرِهِ

إنَّ التَّعبيرَ بالدّينِ في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ دونَ غَيرِهِ مِنَ الألفاظِ المُقارِبَة، سَبَبُهُ أنَّ لَفظَ الدّينِ أجمَعُ وأوسَعُ دَلالَةً مِن غَيرِهِ، فهوَ يَشمَلُ مَعنى البَعثِ، ومَعنى الحِسابِ، ومَعنى الجَزاءِ، ومَعنى الحُكومَةِ الإلَهيَّةِ الَّتي يَخضَعُ لَها الخَلقُ يَومَ القيامَةِ، فلَيسَ هوَ مَحضَ الإحياءِ بَعدَ المَوتِ - كَما في لَفظِ البَعثِ -، ولا مُجرَّدَ عَمليَّةِ العَرضِ والحِسابِ - كَما في لَفظِ الحِسابِ - بَل هوَ نِظامٌ كامِلٌ يَتَضَمَّنُ كُلَّ ذَلِكَ مَعَ ما يَتبَعُهُ مِن جَزاءٍ ومُعامَلَةٍ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 446.

القَولِ والعَمَلِ، وبِهَذا كانَ ذِكرُ (الدّينِ) أبلَغَ في سياقِ التَّوبيخِ؛ لأنَّهُ يَصُبُّ التَّكذيبَ على جامِعِ الحَقيقَةِ وأصلِها، فيَتَّسِعُ مَجمَعُ جُرْمِ المُكَذِّبينَ، ويَشتَدُّ وقتُ المَلامِ عَلَيهِم، ففي التَّعبيرِ بهِ إيجازٌ بَليغ؛ إذْ جيءَ بكَلِمَةٍ واحِدَةٍ جَمَعَت كُلَّ ما يُرادُ مِن تَهويلِ الحَقِّ الَّذي يَكفُرونَ بهِ، فهَذا اللَّفظُ دونَ ما يُقارِبُهُ أجمَعُ دَلالَةً، وأشدُّ تَهويلًا، وأوفَى بمُقتَضَى السّياقِ الَّذي جَعَلَ التَّكذيبَ بهِ أصلَ الغُرورِ، ومَنبَعَ التَّمادي في العِصيانِ.

دَلالَةُ التَّعريف:

إنَّ التَّعريفَ بـ(الـ) في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ هوَ لِلعَهدِ الحاضِرِ في الأذهانِ[1]، أي: الدّينِ المَعروفِ الَّذي لا يَلتَبِسُ على العُقولِ، وهوَ جَزاءُ يَومِ القيامَةِ وحِسابُهُ، فتَعريفُهُ بـ(الـ) جَعَلَ المَعنَى كَأنَّهُ شَيءٌ مَحسومٌ مَعروفُ الحَقيقَةِ، لا يَحتاجُ إلَى بَيانٍ ولا تَحديدٍ، وفي هَذا التَّعريفِ إيماءٌ إلَى أنَّ المُنكِرينَ إنَّما يُكابِرونَ في أمرٍ واضِحٍ جَليٍّ، فإنَّهُم يَعلَمونَ أنَّهُ هوَ الجَزاءُ المُرتَقَبُ، ومَعَ ذَلِكَ يُعرِضونَ عَنهُ، وهَذا أشدُّ في التَّوبيخِ؛ لأنَّهُ يُبرِزُ أنَّ تَكذيبَهُم لَيسَ عَن جَهلٍ، بَل عَن عِنادٍ ومُكابَرَةٍ.

التَّكذيبُ بالمَعلومِ فيهِ فضْحٌ لِلمُكَذِّبين

وأيضًا فإنَّ تَعريفَ (الدّينِ) بـ(الـ) أفادَ الاستِغراقَ في مَعانيهِ، فهوَ يَشمَلُ مَظهَرَ الحِسابِ والجَزاءِ والمُحاكَمَةِ الإلَهيَّةِ، ولَو جاءَ مُنكَّرًا - (تُكَذِّبونَ بدينٍ) - لأوحَى إلَى جُزءٍ مِن هَذِهِ الحَقيقَةِ؛ بَينَما المُعَرَّفُ يُؤذِنُ بجَمعِها كافَّةً.

دَلالَةُ الواو:

الواوُ في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ هيَ واوُ الاستِئنافِ[2]، جاءَت للانتِقالِ مِن تَوبيخِ المُكَذِّبينَ ﴿بِٱلدِّينِ﴾ إلَى

بيانُ رَقابَةِ الملائكةِ، وتَقريرُ وُقوعِ البَعْث

(1) العهد الذّهنيّ: هو أن يتقدّم لمصحوبها علم المُخاطب به، السامرائي، معاني النحو: 1/ 106.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 30/ 263.

بَيانِ دَليلٍ آخَرَ يُكَشِّفُ عَن غَفلَتِهِم، ويُقَرِّرُ حُجَّةَ البَعثِ والجَزاءِ، فالواوُ لَيسَت عاطِفَةً على ما قَبلَها، بَل هيَ مُفتَتَحٌ لِجُملَةٍ جَديدَةٍ تَحمِلُ تَقريرًا جَديدًا، ودَلالَتُها البَلاغيَّةُ أنَّها رَبَطَت ما بَعدَها بما قَبلَها في سياقٍ مُحكَمٍ، كَأنَّهُ يُقالُ: (لَيسَ الأمرُ كَما تَزعُمونَ مِن تَكذيبِ الدّينِ، بَل عَلَيكُم حَفَظَةٌ كِرامٌ يُحصونَ أعمالَكُم)، فجَعَلَت ما بَعدَها دَليلًا آخَرَ مُستَأنَفًا يَعضُدُ ما قَبلَهُ، وأخرَجَت الكَلامَ مِن دائرَةِ السَّردِ المُتَّصِلِ إلَى دائرَةِ الاحتِجاجِ المَبنيِّ على التَّفنُّنِ والتَّقويَةِ في الحُجَّةِ.

بَلاغَةُ استِعمالِ حَرفِ الاستِعلاء:

تَصويرُ عَظَمَةِ الرَّقابَةِ الإلَهيَّةِ وشِدَّةِ الإحاطَة

أوثَرَ التَّعبيرُ بالحَرْف (على) في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾؛ لِدَلالَتِها على الاستِعْلاء، حَقيقيًّا كانَ أم مَجازيًّا، والمُراد أنَّ الحَفَظَةَ الكِرامَ (مُشرِفونَ عَليكُم، كَأنَّهُم فوقَكُم رُتبَةً ومَكانًا، يَطَّلِعونَ عَليكُمُ اطِّلاعَ الرَّقيبِ مِن مَوضِعٍ أعلى)، وفي ذَلِكَ تَهويلٌ لِسُلطانِ الرَّقابَةِ الإلَهيَّةِ، وإشعارٌ بأنَّهُم مُحيطونَ بكُم إحاطَةَ مَن لا يُغادِرُ شَيئًا، ولَو قيلَ: (وَإنَّ لَدَيكُم حافِظينَ)؛ لأفادَ مُجرَّدَ القُربِ، ولَوقيلَ: (مَعَكُم)؛ لأفادَ مُجرَّدَ الصُّحبَةِ، ولَكِنَّ استِعمالَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أوحَى بمَعنى التَّسَلُّطِ والاستِعلاءِ، فصارَ أبلَغَ في الإنذارِ وأشدَّ وقعًا في النُّفوسِ، فتَكمُنُ بَلاغَةُ هذا الاستِعمالِ في تصويرِهِ لِلسّامِعِ أنَّهُ تَحتَ مُراقَبَةٍ دائِمَةٍ مِن جِهَةٍ أعلى، لا يَملِكُ مَعَها مَفَرًّا ولا مَخْلَصًا؛ ليَزولَ وهْمُ الغَفْلَةِ الَّذي هوَ أصلُ التَّكذيبِ بالدّينِ.

نُكتَةُ تَقديمِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾:

التَّهويلُ عِلاجُ الغُرور

إنَّ تَقديمَ الجارِّ والمَجرورِ في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ جاءَ لِأجْلِ إفادَةِ التَّخصيصِ والتَّوكيدِ[1]، فالمُقَدَّمُ مَحَلُّ العِنايَةِ، كَأنَّ المَعنَى: (إنَّ عَلَيكُم أنتُم بخُصوصِكُم - أيُّها المُكَذِّبونَ -

(1) طَبَل، علم المعاني: 124 - 128.

رُقَباءَ موكَّلينَ، لا يُغادِرونَكُم، ولا يَترُكونَكُم)، وهَذا التَّرتيبُ يُكسِبُ المَعنى تَهويلًا، فإنَّهُ يُصَوِّرُ السّامِعَ أوَّلًا في مَوضِعِ التَّرَقُّبِ والنَّظَرِ إلى أعلى - أخْذًا مِن قَولِه: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ - ثُمَّ يَأتي الخَبَرُ عَن أولَئِكَ الَّذينَ يَشغَلونَ هَذا المَوضِعَ، وهُمُ الملائِكَةُ الحافِظون، فصارَ التَّقديمُ مُفيدًا لإلقاءِ الفَزَعِ في القُلوبِ؛ إذْ يُؤذِنُ بأنَّ مَلائِكَةَ المُراقَبَةِ والحِفْظِ مُحيطَةٌ بِهِم قَبلَ أن يَعلَموا مَن هُم أصحابُها، فالتَّرتيبُ المُختارُ هوَ الأوفى بمَقامِ التَّهويلِ والتَّخويفِ، وهوَ أقرَبُ لِسياقِ التَّوبيخِ بَعدَ قَولِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾.

دَلالَةُ تَوكيدِ الجُملَة:

تَقريرُ الخَبَرِ وتَثبيتُه في نُفوسِ المُخاطَبين

إنَّ تَركيبَ الجُملَةِ في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ قَد تَضَمَّنَ أدَواتٍ لِلتَّوكيدِ، فدُخولُ (إنَّ) في أولِ الجُملَةِ؛ لِتَقريرِ الخَبَرِ وتَثبيتِهِ في نُفوسِ المُخاطَبينَ، ثُمَّ دُخولُ لامِ الابتِداءِ في قَولِهِ: ﴿لَحَافِظِينَ﴾؛ لِتَوكيدِ المَخبَرِ بِهِ، فأُكِّدَ الكلامُ بحَرفِ (إنَّ) وبلامِ الابتداء، فصارَ الخَبَرُ مُؤكَّدًا تَوكيدَينِ؛ لأنَّهُم يُنكِرون ذَلِك إنكارًا قَويًّا[1].

فدَلالَةُ هَذا التَّوكيدِ أنَّهُ يَقطَعُ مَجالَ الرَّيبِ والاستِبعادِ؛ فإنَّ المُكَذِّبينَ بالدّينِ قَد أعرَضوا عَن آيَةِ البَعثِ والجَزاءِ، فجيءَ بالتَّوكيدِ المُضاعَفِ؛ ليُلقَى في أذهانِهِم أنَّ هُناكَ حَفَظَةً عَلَيهِم، كَتَبَةً لأعمالِهِم، وأنَّ ذَلِكَ أمرٌ لا مَحيدَ عَنهُ، وفي استِعمالِ التَّوكيدِ هُنا تَفنينٌ بَلاغيٌّ، فإنَّهُ يُناسِبُ سياقَ الرَّدْعِ الَّذي افتُتِحَ بقَولِهِ: ﴿كَلَّا﴾، فكانَ مَوضِعًا لِلتَّثبيتِ وتَقطيعِ العُذرِ؛ إذ لا يَسوغُ بَعدَ ذَلِكَ أن يَتَصَوَّروا أنَّ أعمالَهُم مَخفيَّةٌ أو مُهمَلَةٌ.

نُكتَةُ حَذْفِ المَوصوف:

التَّهويلُ والتَّعميم

حُذِفَ المَوصوفُ، وأُقيمَت صِفَتُهُ مَقامَه في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿وَإِنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 179.

﴿عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾، وتَقديرُ الكَلام: (وإنَّ عَليكُم لَملائِكَةً حافِظين، يَحفَظونَ عَليكُم أعمالَكُم)[1]، والحَذفُ في مِثلِ هَذا المَوضِعِ لَهُ بَلاغَةٌ جَليَّةٌ؛ إذ يوحي بالتَّهويلِ والتَّعميم؛ فالسّامِعُ يَتَوَجَّهُ ذِهنُهُ إلَى أنَّ عَلَيهِ مَوجوداتٍ مَوكَّلَةً بِهِ، مَعروفَةَ الشَّأنِ عِندَ السّامِعِ أنَّهُم المَلائِكَةُ، فيَستَغني عَن ذِكرِهِم تَصريحًا، والحذفُ هُنا أبلَغُ مِنَ الذِّكرِ؛ لِأنَّهُ يُلقي في القَلبِ هَيبَةَ المَجهولِ المَعلومِ في آنٍ واحِدٍ، فهوَ مَجهولٌ مِن حَيثُ التَّركيبُ اللَّفظيُّ؛ لأنَّ المَوصوفَ لَم يُذكَر، ومَعلومٌ مِن حَيثُ المَعنَى؛ لأنَّ المُخاطَبَ يَعرِفُ أنَّ الحَفَظَةَ هُمُ المَلائِكَةُ، فاجتَمَعَ في الحَذفِ إيجازٌ وتَهويلٌ، ومِنْ بَلاغَةِ حَذفِ المَوصوفِ أنَّهُ يَجعَلُ الصِّفَةَ مُعَلَّقَةً بالمُخاطَبِ مُباشَرَةً، كَأنَّ وُجودَهُم وصِفَتَهُم بالحِفاظِ هوَ الأمرُ المُحيطُ بِهِم، دونَ الحاجَةِ إلَى تَفصيلٍ.

نُكتَةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعِلِ:

دَيمومَةُ الرَّقابَةِ وثُبوتُ الحِفظِ في سِياقِ التَّهويلِ

إنَّ الاختيارَ صيغَةِ اسمِ الفاعِلِ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ يُفيدُ دَوامَ الحِفظِ وتَجدُّدَهُ؛ فاسمُ الفاعِلِ في مَقامِهِ هَذا لَيسَ مُرادًا لِمُجَرَّدِ الحُدوثِ كالفِعلِ المُضارِعِ، ولا لِمُجَرَّدِ إسنادِ الفِعلِ كالفِعلِ الماضي، بَل هوَ لِدَلالَةِ الثُّبوتِ والاستِمرارِ، فيَدلُّ على أنَّ صِفَةَ الحِفظِ قارَّةٌ فيهِم، ومُلتَصِقَةٌ بشَخصيَّتِهِم المَلَكيَّةِ، وبِذَلِكَ يُفهَمُ أنَّهُم لَيسوا يَحفَظونَ أحيانًا، ويُهمِلونَ أُخرَى، بَل هُم على دَوامٍ في حالَةِ الحِفظِ، وهَذا أبلَغُ في إلقاءِ الرُّعبِ في نُفوسِ المُكَذِّبينَ؛ إذ يَعلَمونَ أنَّهُم في كُلِّ أحوالِهِم مَحفوظونَ مُراقَبونَ.

وَمِنْ دَلالَةِ صيغَةِ اسمِ الفاعِلِ أنّه يَأتي في اللِّسانِ العَرَبيِّ لِمَعنى الحالِ والاستِقبالِ جَميعًا؛ ففيهِ دَلالَةٌ على أنَّ حِفظَهُم حالٌ قائِمٌ، وأنَّهُ سَيَستَمِرُّ في المَسيرَةِ إلَى يَومِ الدّينِ، حَتَّى يَحصُروا على الإنسانِ كُلَّ

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 411.

جُرْمٍ وكُلَّ طاعَةٍ، فنُكتَةُ التَّعبيرِ بصيغَةِ اسمِ الفاعِلِ أنَّها تُثبِتُ صِفَةَ الحِفظِ على وجهِ الدَّيمومَةِ والاستمرارِ، وتُفيدُ أنَّهُم مُتَّصِفونَ بها في ذَواتِهِم، لَيسَ مَحضَ فِعلٍ يَفعَلونَهُ، ثُمَّ يَزولُ، وهَذا أوفَقُ لِسياقِ التَّهويلِ والتَّرهيبِ بَعدَ قَولِهِ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالجَمعِ:

تعـدُّدُ الرُّقَباءِ وتكثيفُ المراقبةِ أدعَى لِلتَّخويفِ والتَّهويل

آثَرَ القُرآنُ الكَريمُ التَّعبيرَ بالجَمعِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ دونَ الإفرادِ باعْتِبارِ التَّوْزيعِ على النّاسِ، فلِكُلِّ أحَدٍ مَلَكانِ: قالَ تَعالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: 17 - 18]، وهذا بصَريحِ مَعْناهُ يُفيدُ أيْضًا كِنايَةً عَنْ وُقوعِ الجَزاءِ؛ إذْ لَوْلا الجَزاءُ على الأعمالِ؛ لَكانَ الاعتِناءُ بإحْصائِها عَبَثًا[1].

وفي استعمالِ صيغَةِ الجمعِ إلقاءٌ للهيبَةِ على النُّفوسِ لِكَثرَةِ عَدَدِهم، فكَأنَّهُم جُندٌ مُحتَشِدونَ عَلَيهِ، لا يَتَفَلَّتُ عَنهُم شَيءٌ، فبَلاغَةُ الجَمعِ أنَّهُ يَدلُّ على تَفخيمِ أمرِ الرَّقابَةِ، ويُفيدُ استيعابًا وشُمولًا في الحِفظِ، وهوَ أوفَقُ لِسياقِ التَّهويلِ والرَّدْعِ بَعدَ قَولِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾.

سِرُّ اختيارِ صيغَةِ الجَمعِ:

تَمحيضُ النَّظَرِ إلـى وظيفَةِ الحِفْظ

مِنْ بلاغَةِ اختيارِ صيغَةِ (حافظين) دونَ (حَفَظَة)، في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ ما بَينَهُما مِنَ الفَرقِ في الدَّلالَة؛ فالتّاءُ في صيغَةِ (حَفَظة) نَقَلَتِ الوَصفَ إلى الاسميَّة، كَأنَّهُم نَوعٌ مُعَيَّنٌ مِنَ المَلائِكَة، ولَيسَ هَذا مُرادًا في سياقِ الآيَة، بَلِ المُرادُ التَّعبيرُ عَنِ الوَظيفَة، وهيَ الحِفْظ، بدَليلِ تَعَدُّدِ الأوْصافِ بَعدَها في الآيَة: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 179.

دَلالَةُ التَّنكير:

التَّفخيمُ والتَّهويل

إنَّ التَّنكيرَ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّفخيمِ والتَّهويلِ؛ فالتَّنكيرُ يُفيدُ أنَّهُم حَفَظَةٌ عَظيمو الشَّأنِ، مَجهولو الحَقيقَةِ عِندَ المُخاطَبينَ، ومَعروفو المَقامِ في ما أوكِلَ إليهِم مِن رِعايَةِ أعمالِ العِبادِ، فكأنَّ السّامِعَ يَتَوَقَّعُ ما وراءَ هَذا الاسْمِ المُبهَمِ مِن سُلْطَةٍ وقُدرَةٍ وحِدَّةِ مُراقَبَةٍ، وقَد جاءَ التَّنكيرُ هُنا بَعدَ تَوكيدِ الجُملَةِ بـ(إنَّ) واللّام، فاجتَمَعَ التَّوكيدُ مَعَ التَّنكيرِ، فكانَ ذَلِكَ أجمَعَ لِلتَّهويلِ وأقوَى في تَقريرِ أمرِ المُراقَبَةِ والمُحاسَبَةِ؛ وذَلِكَ أوفَقُ لِسياقِ التَّهديدِ بَعدَ تَخطِئَةِ المُكَذِّبينَ بالدّينِ.

فائدَةُ تَعَدُّدِ صِفاتِ المَلائِكَة:

تَعظيمُ المَلائكَة، وإنذارُ الغافِلين

تَعَدَّدَت صِفاتُ المَلائِكَةِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾؛ لتعظيمِ شَأنِهم والثَّناءِ عَلَيهِم، "وَفي ذلك تَعْظيمٌ لأمرِ الجَزاءِ، وأنَّهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ جَلائِلِ الأُمورِ، ولَوْلا ذلكَ؛ لَما وُكِّلَ بضَبْطِ ما يُحاسَبُ عَلَيْهِ، ويُجازَى بِهِ المَلائِكَةُ الكِرامُ الحَفَظَةُ الكَتَبَةُ، وفيهِ إنْذارٌ وتَهْويلٌ لِلْعُصاةِ، ولُطْفٌ لِلمُؤْمِنينَ، وعَنِ الفُضَيْلِ أنَّهُ كانَ إذا قَرَأها؛ قالَ: ما أشَدَّها مِنْ آيَةٍ على الغافِلينَ!"[1].

بَلاغَةُ تَرتيبِ أوْصافِ المَلائِكَة:

التَدَرُّجُ في رَسْمِ مَشهَدِ الرَّقابَةِ الإلَهيَّةِ وتَعظيمِ المَلائِكَة

جاءَت أوْصافُ المَلائِكَةِ مُرَتَّبَةً في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، فوُصِفَت بالحِفظِ ثُمَّ الكَرَمِ ثُمَّ الكِتابَةِ ثُمَّ بِعِلمِ ما يَفعَلُهُ الإنسان[2]، وإنَّ تَرتيبَ أوصافِ المَلائِكَةِ جاءَ على أسلوبٍ بَليغٍ مُحكَمٍ، يَظهَرُ فيهِ التَّدرُّجُ والتَّفنيدُ، فأوَّلُ ما بُدِئَ بِهِ وصفُهُم بـ(حافِظينَ)؛ لأنَّ الغَرَضَ الأصْليَّ مِن

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 717.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 78.

ذِكرِهم هوَ التَّخويفُ والتَّهويلُ بأنَّ أعمالَ الإنْسانِ لا تَخفَى؛ فذُكِرَ الحِفظُ أوَّلًا؛ لأنَّهُ أجمَعُ وأوقَعُ في النَّفسِ، ثُمَّ أُتبِعَ ذَلِكَ بوَصفِهِم ﴿كِرَامًا﴾، فهوَ تَنزيهٌ لِشَخصيَّتِهِم، وإشارَةٌ إلَى عُلوِّ مَكانَتِهِم عِندَ اللهِ تَعالَى؛ ليُعلَمَ أنَّهُم لا يَكتُبونَ ما يَكتُبونَ على سَبيلِ التَّشَفِّي أو التَّجَنِّي، بَل هُم مَوصوفونَ بالكَرامَةِ والنَّزاهَةِ، وذِكرُ هَذِهِ الصِّفَةِ بَعدَ الحِفظِ؛ لِتَطمَئِنَّ النُّفوسُ إلَى أنَّ الرَّقابَةَ عادِلَةٌ مَحضَةٌ، ثُمَّ جيءَ بنَعْتِهِم ﴿كَٰتِبِينَ﴾، وهوَ تَفصيلٌ؛ لِما أُجمِلَ في وصفِ الحِفظِ، فإنَّ الحِفظَ قَد يَكونُ بمُجرَّدِ العِلمِ والمُشاهَدَةِ، فزيدَ بَيانُهُ بالكِتابَةِ؛ ليُعلَمَ أنَّ أعمالَ الإنْسانِ تُسَجَّلُ، وتُحصَرُ، وتُحفَظُ في صُحُفٍ، فلا يَفوتُ شَيءٌ مِن دَقيقٍ أو جَليلٍ، ثُمَّ خُتِمَتِ الصِّفاتُ بالمُضارِعِ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾؛ لِلتَّوْكيدِ والاحتِراسِ من تَوَهُّمِ وُقوعِ النَّقْصِ أوِ الخَلَلِ في الحِفظِ والكِتابَةِ، بَلْ هوَ تَسجيلٌ مَبْنِيٌّ على عِلمٍ مُستَمِرٍّ في الحالِ والمَآلِ، شامِلٍ لَجَميعِ ما يَفعَلُهُ العَبدُ مِنْ خَيرٍ أوْ شَرٍّ.

بَلاغَةُ الجَمعِ في الأوْصاف:

تَعظيمُ الرَّقابَةِ، وشُمولُ الكَرامَةِ، واستيعابُ الكِتابَةِ

إنَّ التَّعبيرَ عَن أوصافِ المَلائِكَةِ في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ بصيغَةِ الجَمعِ دونَ الإفرادِ هوَ مِن مَظاهِرِ بَلاغَةِ النَّظمِ القُرآنيِّ، وفيهِ نُكْتَةٌ بَيِّنَةٌ على أُسلوبِ التَّهويلِ والتَّعظيمِ، فالإتيانُ بالجَمعِ ﴿لَحَٰفِظِينَ﴾ يُفيدُ تَعدُّدَ الرُّقَباءِ على الإنْسانِ، حَتَّى يُدرِكَ أنَّهُ لَيسَ مَحفوظًا بمَلَكٍ واحِدٍ، بَل هوَ في مَعرِضِ رَقابَةٍ جَماعيَّةٍ تُحيطُ بهِ[1]؛ وذَلِكَ أوقَعُ في النَّفسِ، وأشَدُّ إلقاءً لِرَهْبَةِ الرَّقابَةِ، وأكْثَرُ مَنعًا لِلوَهْمِ مِن أن يَفوتَ العَمَلُ بغَفْلَةٍ أو سَهْوٍ، وأمّا ﴿كِرَامًا﴾؛ فالتَّعبيرُ عَنهُم بالجَمعِ يُفيدُ عُمومَ صِفَةِ الكَرامَةِ في جَميعِهِم، لا يَختَصُّ بمَلَكٍ دونَ آخَرَ، فكُلُّهُم كِرامٌ عِندَ اللهِ، وهَذا مِمّا يُقوّي وطْأَةَ الحُجَّةِ على المُكَذِّبِ، وفي ﴿كَٰتِبِينَ﴾ دَلالَةٌ على

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 78.

أنَّ الكِتابَةَ شامِلَةٌ مُستَوعِبَةٌ، فكُلُّ مَلَكٍ مِن هَؤُلاءِ يَكتُبُ على مَحلِّهِ المَعهودِ، ومِثلُ هَذا اللَّفظِ في الجَمعِ يُشعِرُ بالإحاطَةِ والاستِقصاءِ، فإنَّهُ لَو قيلَ (كاتِبًا)؛ لَأوْهَمَ أنَّ الرَّقابَةَ تُجمَعُ في صُحُفٍ بقَلمٍ واحِدٍ، أمّا وقَد قيلَ: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾؛ فقَد انحَلَّ الوَهْمُ، وبانَ أنَّ الأعمالَ تُدوَّنُ بطَريقٍ جَمعيٍّ لا مَفرَّ لِلإنسانِ مِنهُ، ففيهِ تَنبيهٌ إلى أنَّ أفعالَ النّاسِ مُسَجَّلَةٌ مَحفوظَةٌ، لا تُترَكُ لِلنِّسيانِ أوِ الإهمالِ، بَلْ يُسَطَّرُ كلُّ شيءٍ في صُحُفٍ خاصَّةٍ، تُعرَضُ يومَ القيامةِ، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: 49].

الكِنايةُ في صِفَةِ الكِتابَة:

تَخويفُ العاصينَ بكِتابَةِ الحافِظين

في صِفَةِ الكِتابَةِ مِنَ الآيَةِ - ﴿كَٰتِبِينَ﴾ - كِنايَةٌ عَنِ الضَّبطِ التّامِّ والتَّوثيقِ الدَّقيقِ[1]؛ إذ يُقصَدُ مِن خِلالِ الوَصفِ بها أنَّ المَلائِكَةَ المُوَكَّلينَ بأعمالِ العِبادِ يُؤَدّونَ وظيفَتَهُم في الحِفظِ والرَّصدِ أداءً لا يَدخُلُهُ نِسيان، ولا يَعرِضُ لَهُ خَطَأٌ أوْ زيادَةٌ أوْ نُقصان، كَما يُنكَرُ الحُكمُ الجائِرُ والإجحافُ في الإثباتِ، وهذا المَعْنَى نَتيجَةٌ لِلكِتابَةِ، حينَ يَتَتَبَّعُ الكاتِبُ الوَقائِعَ، ويُدَوِّنُها على وجْهِ الدِّقَّةِ والإتقانِ.

نُكتَةُ ذِكرِ العِلْم:

تَوكيدُ الإحاطَةِ وقَطْعُ التَّوَهُّمِ في سياقِ التَّهديد

إنَّ ذِكرَ فِعلِ العِلْمِ بَعدَ ذِكرِ الأوصافِ الثَّلاثَةِ: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ - مَعَ أنَّ في كُلِّ واحِدٍ مِنها ما يَدلُّ على العِلمِ - هوَ مِن بابِ التَّوكيدِ، والإيضاحِ بَعدَ الإجمالِ، ومِن بابِ التَّنصيصِ على المَقصودِ الأعلى مِن تِلكَ الصِّفاتِ، وصِفَةُ عِلْمِ المَلائِكَةِ بما يَفعَلُهُ النّاسُ هُنا بمَعْنَى الإحاطَةِ بما يَصدُرُ عَنِ النّاسِ مِنْ أعمالٍ، وما يَخطُرُ ببالِهِم مِنْ تَفكيرٍ ممّا يُرادُ بِهِ عَمَلُ خَيْرٍ أوْ شَرٍّ، وهوَ الهَمُّ[2]، فالحِفظُ يَستلزِمُ العِلمَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 180.
(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 180.

بالمَحفوظِ، والكِتابَةُ لا تَتَأتَّى إلّا بَعدَ الإحاطَةِ بالمَكتوبِ، والكَرامَةُ تَدلُّ على شَرَفِ مَعرِفَتِهم وصِدقِها؛ ومَعَ ذَلِكَ جاءَ الوَصْفُ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾؛ ليُصَرِّحَ بالحَقيقَةِ المَقصودَةِ، وهيَ شُمولُ عِلمِهم بأعمالِ البَشَرِ جَميعِها، صَغيرِها وكَبيرِها، جَهرِها وسِرِّها، وهَذا التَّنصيصُ يَزيدُ في إلقاءِ الرَّهبةِ في نُفوسِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّهُ إذا قيلَ فقَطْ: (إنَّ عَلَيكُم حافِظينَ)؛ لَرُبَّما أوحَى ذَلِكَ أنَّهُم يَحفَظونَ النّاسَ مِمّا يُصيبُهُم، أو يَحفَظونَ أقدارَهُم وآجالَهُم؛ فجاءَ قَولُهُ: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾؛ ليَقطَعَ التَّوهُّمَ، ويُعَيِّنَ نَوعَ الحِفظِ، أنَّهُ حِفظُ الأعمالِ بالعِلمِ والكِتابَةِ.

وَمِنْ فوائدِ التَّعبيرِ بالفعلِ: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾: أنَّهُ يَكْشِفُ عَنِ المَدارِ الّذي يَدورُ عَلَيْهِ تَسْجيلُ الأعْمالِ، فهوَ عِلْمٌ يُفْضي إلى كِتابَةٍ، لا نَقْلًا صَمًّا، ولا حِفْظًا غَيْرَ مُدْرَكٍ، وإنَّما هيَ كِتابَةٌ ناتِجَةٌ عَنْ عِلْمٍ مُباشِرٍ، يَدُلُّ على الإحاطَةِ والدِّقَّةِ في الرَّصْدِ.

دَلالَةُ المُضارَعَة:

دَلالَةُ الاستِمرارِ والدِّقَّةِ في الرَّصْدِ الإلَهيِّ

جاءَ الفِعلُ مِنَ العِلمِ بصيغَةِ المُضارَعَةِ في قَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾؛ للدَّلالَةِ على أنَّ عِلْمَ هؤُلاءِ الحَفَظَةِ الكِرامِ بأعمالِ البَشَرِ لَيْسَ أمرًا طارِئًا ولا مُنْقَطِعًا، بَلْ هوَ مُستَمِرٌّ ومُتَجَدِّدٌ، فهُم يَطَّلِعونَ على كُلِّ ما يَصْدُرُ عَنِ الإنْسانِ مِنْ أعْمالٍ في كُلِّ أوقاتِهِ وأحْوالِهِ، سِرًّا وعَلانيَةً، وفي التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ تَنْبيهٌ على أنَّ تَسْجيلَ الأعْمالِ جارٍ على وجْهِ الدِّقَّةِ والاستِقصاءِ، فلا يَفوتُهُم شَيْءٌ مِمّا يَجْري مِنَ العَبدِ، كائِنًا ما كانَ؛ ففيهِ مِنَ الإنْذارِ والوَعيدِ ما فيه؛ إذْ لَم يَبْقَ لِلإنسانِ عُذْرٌ بَعْدَ أنْ عَلِمَ أنَّ كُلَّ ما يَفْعَلُهُ مَكْتوبٌ مَعْلومٌ.

إفادَةُ العُمومِ في الإحاطَةِ بالظّاهِرِ والباطِنِ

دَلالَةُ ﴿مَا﴾:

أوثَرَ التعبيرُ بـ﴿مَا﴾ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾

دونَ غَيرِها مِنَ المَوصولات؛ لأنَّها مُبهَمَة، وتُفيدُ عُمومَ المَعنَى، فهيَ شامِلَةٌ لكلِّ ما يَصْدُرُ عَنِ المُكَلَّفينَ مِنْ أعْمالٍ، صَغُرَت أو كَبُرَت، جَهْرًا كانَت أو سِرًّا، وفي استِعمالِ ﴿مَا﴾ المَوْصولَةِ دونَ أنْ يُقالَ: (يَعْلَمونَ أعْمالَكُم) أو نَحوُهُ: تَوْسيعٌ لِدَلالَةِ العِلْمِ؛ ليَشْمَلَ حَتّى ما لا يُعَدُّ عَمَلًا صَريحًا، كالهُموسِ والنّيّاتِ وخَواطِرِ القُلوبِ مِمّا يَتَعَلَّقُ بالقَصْدِ والإرادَةِ، فكَأنَّما قيلَ: (يَعْلَمونَ جَميعَ ما يَصْدُرُ عَنْكُم) كَذلِكَ، فإنَّ في وُقوعِ ﴿مَا﴾ المَوْصولَةِ إيماءً إلى أنَّ المَعْلومَ لَدَى الحَفَظَةِ هوَ ما لَهُ مَناطٌ بالفِعْلِ الإراديّ، مِنْ خِلالِ صِلَتِها الفِعْليَّة؛ وهَذا يُؤَكِّدُ على مَعْنَى الجَزاءِ والحِسابِ؛ إذْ إنَّ المُؤاخَذَةَ تَكونُ على ما صَدَرَ مَعَ القَصْدِ والاختيارِ، ففي ذلِكَ إشْعارٌ بالعَدْلِ الإلهيِّ في الحِسابِ.

بَلاغَةُ استِعمالِ مادَّةِ الفِعْل:

الفِعْلُ أعَمُّ مِنَ العَمَل

آثَرَ القرآنُ الكَريمُ التَّعبيرَ بالفِعلِ في قَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، دونَ أنْ يَقولَ: (ما تَعْمَلونَ)؛ لأنَّ الفِعْلَ أعَمُّ مِنَ العَمَلِ؛ إذِ العَمَلُ مُقَيَّدٌ في الاصطِلاحِ العُرْفيِّ والعَقائِديِّ بما يَكونُ لَهُ قَصْدٌ أو تَكْليفٌ، وغالِبًا ما يُسْتَعْمَلُ في الطّاعَةِ والمَأْمورِ بِهِ، والعَمَلُ رُبَّما اختَصَّ بإيجادِ الأثَرِ في الشَّيءِ، كَما يُقالُ: فلانٌ يَعْمَلُ الطّينَ خَزَفًا، ويَعْمَلُ الخوصَ زَنبيلًا، ولا يُقال: يَفعَلُ ذَلِك[1]، بَيْنَما الفِعْلُ في اللُّغَةِ يَشْمَلُ كُلَّ صادِرٍ عَنِ الإنسانِ مِنْ حَرَكاتٍ وسُكونٍ، مِمّا يَتَعَلَّقُ بجَوارِحِهِ أو بقَلْبِهِ، سَواءٌ أُريدَ بِهِ التَّقَرُّبُ أم لَم يُرَدْ.

فاخْتيارُ الفِعْلِ ﴿تَفْعَلُونَ﴾ يُفيدُ الاسْتيعابَ والإحاطَةَ؛ ليَدُلَّ على أنَّ أولئِكَ الحَفَظَةَ يَضْبِطونَ كُلَّ ما يَصْدُرُ عَنْكُم، لا ما تَعْتَقِدونَ أنَّهُ مُهِمٌّ فقَط، أو مِمّا تَرَوْنَهُ مِمّا يُكْتَبُ عَلَيْكُم، بَلْ كُلَّ حَرَكَةٍ وكُلَّ سُكونٍ، مِمّا هوَ فِعْلٌ في نَظَرِ الشَّرْعِ أوِ اللُّغَةِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية: 135 - 136.

دَلالَةُ المُضارَعَة:

استِمرارُ الفِعْل، واستِمرارُ الرَّصْد

في استِعْمالِ صيغَةِ المُضارِعِ في قَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ دونَ الماضي (ما فعَلْتُم) دَلالَةٌ بَلاغيَّةٌ عَظيمَةُ الأثَرِ في مَقامِ التَّقْريعِ والإنْذارِ، إذِ المُضارِعُ في نَظائِرِ هَذا السّياقِ يُفيدُ الاسْتِمرارَ والتَّجَدُّدَ، وهوَ دَلالَةٌ لُغَويَّةٌ تَقْتَضيها صيغَةُ المُضارِعِ، مِمّا يُفيدُ أنَّ أفْعالَهُم مَوضِعَ الرَّصْدِ والكِتابَةِ لَيْسَت أعْمالًا قَدْ خَلَت، وانْقَضَت، بَلْ هيَ جاريَةٌ ومُتَكَرِّرَةٌ في حالِهِمُ الرّاهِنِ ومُسْتَمِرَّةٌ عَلَيْهِم، وهَذا يُناسِبُ سياقَ التَّوْبيخِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾، فإنَّ التَّكْذيبَ بالدّينِ لَيْسَ فِعْلًا ماضيًا وقَعَ، ثُمَّ انْقَضَى، بَلْ هوَ سُلوكٌ مُتَجَدِّدٌ، وتَصَرُّفٌ دائِمٌ في حَياةِ أولئِكَ المُكَذِّبينَ، فجاءَ الفِعْلُ المُضارِعُ ﴿تَفْعَلُونَ﴾؛ ليوافِقَ هَذِهِ الصّورَةَ مِنَ الإصرارِ والاستِمرارِ على الجُحودِ والإعراضِ.

كَذلِكَ، فإنَّ المُضارَعَ يوحي بحُضورِ الفِعْلِ واقْترابِهِ، وفي ذلِكَ تَقْوِيَةٌ لِمَعْنَى الرَّقابَةِ والمُراقَبَةِ، وإشْعارٌ لِلمُخاطَبِ بأنَّهُ في مَوْضِعِ رَصْدٍ دائِمٍ، لا يَفوتُ مِنهُ شَيْءٌ، وأنَّ أفْعالَهُ تُكْتَبُ حينَ تَقَعُ، لا يُنْتَظَرُ بها أنْ تَتِمَّ، ففي ذلِكَ إنْذارٌ مُسْتَتِرٌ بأنَّ المُحاسَبَةَ آتيَةٌ لا مَحالَةَ، وأنَّ العَمَلَ المُسْتَمِرَّ هوَ مَوضِعُ الجَزاءِ.

غَرَضُ حَذْفِ المَفعولِ:

إفادَةُ العُمومِ والشُّمولِ الَّذي يَحمِلُ مَعنَى الزَّجْرِ والتَّخْويف

في حَذْفِ المَفْعولِ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ بَلاغَةٌ تُفيدُ التَّفْسيحَ في مَعْنَى الفِعْلِ وتَوسيعَ دَلالَتِهِ، فإنَّ الحَذْفَ هُنا لِلتَّعْميمِ؛ ليَشْمَلَ كُلَّ مَفْعولٍ يُتَصَوَّرُ فِعْلُهُ، فتَكونُ ﴿مَا﴾ مَوْصولَةً مَفْعولًا بِهِ لِـ ﴿يَعْلَمُونَ﴾، وهيَ بمَعْنَى: (الَّذي)، أيْ: (يَعْلَمونَ الَّذي تَفْعَلونَهُ، مِنْ خَيْرٍ أو شَرٍّ، كَبيرٍ أو صَغيرٍ، سِرٍّ أو جَهْرٍ).

فَجاءَ الحَذْفُ؛ ليُنَزِّلَ المَعْنَى مَنزِلَةَ الإطْلاقِ المُخيفِ الّذي لا

يُترَكُ مَعَهُ شَيْءٌ إلّا دَخَلَ فيهِ، وهَذا أشَدُّ وقْعًا في النُّفوسِ، وأبلَغُ في الزَّجْرِ والتَّخْويفِ، مِنْ أنْ يُذْكَرَ مَفْعولٌ مُعَيَّنٌ، فإنَّ تَعْيينَهُ يَقْتَصِرُ بالفِكْرِ عَلَيْهِ، بَيْنَما الحَذْفُ يُطْلِقُ لِلوَهْمِ العِنانَ؛ ليَتَصَوَّرَ كُلَّ شَيْءٍ، فتَتَّسِعَ الدّائِرَةُ، وتَعْظُمَ الرَّهْبَةُ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والستون،
سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 66 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-45-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 66 : المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-45-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6448894 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"